

وفي مقام آخر، ، كيف صور الرجل المرأة في إبداعاته، وهل استطاع أن ينتقل بها إلى مجالات رحبة تعكس التوجه الحضاري للمجتمع الجزائري، أو أنه قدمها في صورة باهتة لا ترتقي إلى مستوى الطموحات، فيفشل العمل الإبداعي لفشله في رسم هذه الصورة، على الرغم من أنه قد يربطها بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية على وجه العموم. فإنه قد ينطلق من ذاته فتصبح المرأة هي الزوجة والأم والأخت والأرض والوطن والحياة. "وتبرز لنا هذه البنية الاجتماعية داخل النص الروائي بصورة أجلى في كون النص يقوم على أساس "القصة" بما يحويه من شخصيات وأحداث وفضاءات وأزمنة تكون لها مرجعيتها إلى الواقع المباشر أحياناً كثيرة، ورغم البعد التخيلي المضاف على عالم القصة، فإن نص الرواية يظل تجسيدا لأفعال وعلاقات وقيم اجتماعية وتاريخية محددة. يتم تقديم هذا التجسيد من خلال بناء له استقلاله الذاتي عن هذه البنية الاجتماعية من جهة، وضمنها من خلال فعل الكتابة من جهة ثانية" (3) وتلعب الشخصيات الروائية دوراً كبيراً في هذا التجسيد والتشخيص كما تكون الأحداث والزمن إطاراً لتحركات هذه الشخصيات.

ويعدّ عبد الحميد بن هدوقة من الذين رسموا صورة فنية للمرأة الجزائرية في عالمه الروائي في محيط اجتماعي ونفسي من خلال تفاعلها الخارجي وتفاعلها الداخلي رغبة منه في تغيير وضع المرأة وتحسينه، موظفاً لذلك قدراته الإبداعية. وقد رصد صورة هذه المرأة من خلال رصده لحركة المجتمع الجزائري، فوقف عندها أيام حرب التحرير، وإبان الاستقلال، ووقف عندها في الريف، ثم انتقل بها إلى المدينة رغبة منه. في اكتمال هذه الصورة بشكل طبيعي وفي إطار منطقي، لقد وظفها في بنية اجتماعية متوافقة ومتناقضة.

والواقع أن ابن هدوقة قد جعل المرأة نصاً مفتوحاً على عدة قراءات، يحتمل تأويلاً بحسب مستوى القراءة الذي تنطلق منه، وتمارس -بوساطته- فعل القراءة. والذي يعتمد على مرجعية نصوص هذا الأدب وسياقاتها المتنوعة؛ إذ كان حريصاً على تسجيل موقف مما يحدث في الجزائر في مسيرتها التنموية "فالنص بنية دلالية تنتجها ذات (فردية أو جماعية) ضمن بنية نصية منتجة، وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة" (4).

إن المرأة في رواية "نهاية الأمس" هي امرأة الثورة التحريرية، وقد قدمها الروائي في صورة تجمع بين السلبية والإيجابية، فقد كانت رقية زوجاً للبشير الذي أصبح مجاهداً في صفوف جيش التحرير، والذي تركها لقدرها المحتوم